

التحرير الثاني والنهائي

لوهراڻ والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م.

بدروات بن عتو

مقدمة: في مطلع القرن السادس عشر، اندفعت الحركة التوسعية الاستعمارية الأسبانية بوتيرة سريعة، مستهدفة القلاع الساحلية لشمال أفريقيا بغية تسخيرها كقواعد للتغلغل إلى المناطق الداخلية. وكانت قلعتي المرسى الكبير ووهراڻ، أولى قلاع المغرب الأوسط التي احتلها الأسبان⁽¹⁾، ورغم نجاح حكومة الداى محمد بكداش في تحرير هاتين القلعتين سنة 1708م إلا أن الاحتلال الأسباني قد عاد مجدداً إلى وهران والمرسى الكبير في جويلية 1732م، وعجز باى الغرب الجزائري بوشلاغم مصطفى في الدفاع عنهما، وكان الاحتلال الثاني نكبة للعثمانيين والعرب والأمازيغ بياالة⁽²⁾ الجزائر، فتجدد الحصار من طرف بايات معسكر المتعاقبين - دون جدوى - إلى أن تقلد الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بالأكحل⁽³⁾ حكم بايليك الغرب عام 1193هـ/1779م، فشرع في تنفيذ محاولاته العسكرية لتحرير الثغرين، منذ بداية ولايته إلى أن افتتحتها من الأسبان صلحا في 04 رجب 1206هـ/ 27 فبراير 1792م، فكان التحرير أو الفتح الثاني والنهائي الذي نستعرض خطوطه العريضة، بالكيفية التالية:

I- دوافع التحرير الثاني لوهراڻ والمرسى الكبير سنة 1792م: بمجرد اعتلاء محمد بن عثمان الكردي، منصب باى الغرب الجزائري عام 1779م وضع نصب عينيه قضية وهران، وتساءلنا عندئذ عن الدوافع التي دفعته إلى تسريع عملية تحرير وهران، من الاحتلال الأسباني، وتصورنا الإجابة على ذلك كالتالي:

1- توالي الانتكاسات العسكرية الأسبانية بساحل مدينة الجزائر في سنوات

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس.

1775م، 1783م، 1784م⁽⁴⁾، واختيار الحكومة الأسبانية الصلح مع حكومة الداوي محمد بن عثمان باشا سنة 1785م ليتم التوقيع على معاهدة السلام سنة 1786م.

2- اشتداد الخطر الأسباني بوهران من خلال إحكام الأسبان لتحصينات مدينة وهران⁽⁵⁾، وتصاعد الهجرة الأسبانية إلى وهران والمرسى الكبير⁽⁶⁾، وترادف الغارات الأسبانية على القبائل⁽⁷⁾.

3- دعوة العلماء إلى فتح وهران، ونستقره ذلك من خلال الفصل الذي خصصه ابن زرفة في مخطوطه الرحلة القمرية في السيرة الحمديّة بعنوان " في الترغيب للجهاد والتهريب لمن تغافل عنه من العباد"⁽⁸⁾ وكذا المرثي التي استغلها العلماء في دعوة الحكام العثمانيين لجهادة الأسبان الذين بوهران.

II- مراحل التحرير: تعدى غزو وهران من طرف الباوي محمد بن عثمان الكردي، عشريّة كاملة من الزمن (1780م - 1792م) ومكنتنا المصادر من تصنيف سير الغزو طيلة المدة السالف ذكرها إلى ثلاث مراحل متعاقبة حسب التطورات المسجلة، متوجة بمرحلة رابعة، حول سير المفاوضات وعقد الصلح وكذا الاستعداد للفتح ودخول المدينة.

1- المرحلة الأولى: 1780م - 1787م، وميزها ما يلي:

أ- حرب الاستنزاف (الحرب الخاطفة): 1780م - 1785م.

أورد تدينا⁽⁹⁾ Thédénat أن الباوي محمدا بن عثمان الكردي، كان ينظم غارات ضد الأسبان بوهران كل شهر رمضان من كل سنة، فيقابل بمدافعه حصون وأسوار وهران التي كانت تخلف القتلى والجرحى في صفوف جنوده⁽¹⁰⁾ وذكر مؤرخو الباوي محمدا أنه كان يقصد الثغر الوهراني بقصد الرباط⁽¹¹⁾ اليوم أو اليومين في السنة دون ملاقات العدو، كما جرت عليه عادة من سبقوه من البايات، ويفسرون ذلك أنه استأذن الداوي محمد بن عثمان باشا، والديوان بمدينة الجزائر مرات عديدة لقتال الأسبان واقتحام أسوارهم، فلم يسمحوا له بذلك، فيرجع دون طائل، لأن - في اعتقادي - الترخيص بالقتال مقرون بحصول الباوي على مساعدة مادية وبشرية من طرف الداوي أو من البايليكات الأخرى، ما دامت قضية وهران قضية وطنية، وهذا

ما لم تسمح به ظروف الحكومة العثمانية الجزائرية، لكن لم يمنعه من الرباط المحدود المدة، شريطة أن لا يشتبك مع العدو.

ب-هدنة 1786م-1787م: توقفت حرب الاستنزاف التي شنها الباي محمد بن عثمان الكردي على الأسيان بوهران سنة 1785م استجابة لمساعي الصلح الاسبانية لدى قصر الداى بمدينة الجزائر، وبعد سنة كاملة تمّ التوقيع على معاهدة الصلح في جوان 1786، ويظهر أن هذه الهدنة قد استغلها الباي محمد أحسن استغلال إذ مكنته من غزو قبائل الهضاب العليا، واخضاعها لسلطته، ومن ثمة استعراض قدراته العسكرية أمام الأسيان وأعوانهم من المسلمين، ولما فرغ من أداء مهامه في الجنوب الجزائري، عزم على مناجزة الأسيان بوهران مجدداً، وبطريقة أخرى، تقوم على الحاصرة وتضييق الخناق على العدو الأسباني وأعوانه.

2- المرحلة الثانية 1787م-1790م: وهي مرحلة الحصار الأول الذي ضربه الباي محمد بن عثمان الكردي على مدينة وهران، ويمكن تشخيص أهم تطورات هذا الحصار في النقاط التالية:

أ- قرار الباي بمداومة وتنظيم الرباط في أحواز وهران، باعتماد إجراءات كانت في أساسها إغرائية وتشجيعية وتنظيمية للمرابطين الذين استجابوا وتوافدوا على الرباطات⁽¹²⁾ من كل نواحي الغرب الجزائري بأموالهم وأولادهم.

ب- اعتماد الباي محمد في حصاره الأول على بعث السرايا⁽¹³⁾ دورياً ونصب الكمائن ومهاجمة العدو براً وبحراً.

ج- تصعيد الباي محمد بن عثمان الكردي لنشاطه العسكري في أعقاب الزلزال الذي ضرب وهران في ليلة 8-9 أكتوبر 1790م، والذي خلف خسائر مادية وبشرية ثقيلة.

د- اتحاد حاكم وهران الجديد الكونت دي كومب هرموزا *comte de cumber hermoza* الذي خلف دون نيكولاس قارسيا *don nicolas garcia* تدابير استعجالية لتطويق الفوضى التي سادت مدينة وهران.

هـ- وصول نجدات أسبانية متعددة الأوجه إلى مينائي: المرسى الكبير ووهران بدءاً من 10 أكتوبر 1790م إلى نهاية الشهر.

و- فشل الاقتحام الأول لأسوار مدينة وهران مقابل نجاح العمليات العسكرية الأسبانية، المعتمدة على الهجوم الخاطف، ومثانة المقاومة خلف الحصون.
 ي- فشل الاقتحام الثاني⁽¹⁴⁾ وإعلان الباي محمد بن عثمان الرحيل عن وهران، مسرحا القبائل إلى أوطانها وتأخير الفتح ريثما يوفر الأسباب الكافية لذلك، واتخاذ مجموعة من الإجراءات الدالة على عزمه بمواصلة الحصار والعودة مجددا لوهران.
 ويمكن لنا رصد عوامل فشل الحصار الأول في:

- 1- غياب الدور الباشوي في عملية الحصار الأول، التزاما بمعاهدة الصلح سنة 1786م.⁽¹⁵⁾
- 2- ضعف التدريب العسكري للمجاهدين.⁽¹⁶⁾
- 3- ثبات الأسبان أثناء القتال.⁽¹⁷⁾
- 4- خطر الجوسسة الأسبانية والتغطيس، ونفاق القبائل في ناحية وهران.⁽¹⁸⁾
- 5- ضعف الجوسسة الإسلامية.
- 6 - ضعف الفعالية القتالية لدى المجاهدين.
- 7- نقص الذخيرة الحربية والعتاد العسكري الثقيل، وغياب قواعد عسكرية واقتصادية خلفية، تدعم القتال في ضواحي وهران.
- 3- المرحلة الثالثة 1790م- 1791م: وهي مرحلة الحصار الثاني الذي حاول فيه الباي محمد بن عثمان الكردي تجاوز أخطاء الحصار الأول، فقبل مباشرة الحصار، شرع في تجهيز العتاد الحربي⁽¹⁹⁾، وجمع السلاح والذخيرة الحربية⁽²⁰⁾، ونظم جيشه من خلال جمع ذوي الاختصاص الحربي، وجمع طلبة الزوايا المنتشرة بالغرب الجزائري، وتكليفهم بالمرابطة حول وهران، كما نظم أيضا الرباط حيث عين الفقيهين: "محمد بن عبد الله الجليلي والطاهر بن حواء" أميرين على المرابطين، وكذا أمناء وقواد الرباط. وحرص الباي محمدا على توفير تموين الرباط بالذخيرة الحربية والغذاء والدراهم والخيول وكل ما يحتاجه المرابط من مرافق ضرورية.⁽²¹⁾

ولم يغفل الباي محمدا تدريب الطلبة المرابطين على سلاح المدفعية وحفر الخنادق⁽²²⁾، وإصلاح الطرق الواصلة بين معسكر وهران، لجر المدافع⁽²³⁾، وكذا إصلاح العتاد المدفعي وجره وتجميعه ببرج سيق، ونشير إلى أنه أشرك الخبوسين في العملية مقابل إخلاء سبيلهم.⁽²⁴⁾

وأمام هذه المستجدات، فكر الأسبان في طرق باب المفاوضات مع الداوي محمد بن عثمان باشا، حول قضية وهران التي علق في صلح 1786م، فبعث الملك الأسباني كارلوس الرابع carlos IV رسولا إلى مدينة الجزائر، مقترحا على الداوي: تسليم مدينة وهران للباي، والاحتفاظ بالمرسى الكبير.⁽²⁵⁾ ولم يجد هذا الاقتراح ترحيبا من قبل الداوي والباي معا، فأعادت حكومة مدريد الكرة التفاوضية، إذ بعثت رسولا إلى الداوي محمد بن عثمان باشا، طالبة منه أن يأمر الباي محمدا بن عثمان الكردي بقبول هدنة مدتها شهرا واحدا، من 25 مارس إلى 25 أبريل 1791م، بينه وبين الأسبان الذين بوهران، حتى يتمكنوا من إبلاغ الملك الأسباني بمراد الباشا و الباي معا، ويحسموا بين حضرته موقفهم من قضية وهران: التسليم أو استئناف القتال.⁽²⁶⁾ فأرسل المدد العسكري إلى وهران، وإشتدت شوكة الأسبان.⁽²⁷⁾ وبدأت المناوشات بينهم وبين الطلبة، وواصل الباي استعداداته الأخيرة للخروج إلى حرب وهران، كتحصير المجاهدين نفسيا، والدعوة إلى الجهاد⁽²⁸⁾، ورفع معنويات الطلبة المرابطين، وفرض الحراسة على وادي إيفري، وعلى الطريق الواصل بين إيفري والمرسى الكبير⁽²⁹⁾، ونصب متارس المدفعية على جبل المائدة، وجرّ المدفعية إليه، وتدعيم قواته بالجنود الانكشاريين.⁽³⁰⁾ وفي نهاية ماي 1791م نشب القتال من جبل المائدة، تم فرض التكتيك العسكري تحويل القتال إلى السهل-الأقدام الجنوبية لجبل المائدة- وقد ألحق ذلك خرابا ببعض الحصون واحراق البرجين الكبيرين: برج العيون وبرج الجديد المقابلين لوادي إيفري، ناهيك عن الخسائر البشرية في صفوف الأسبان.

ولما استعصى الفتح، ظهر للباي محمد بن عثمان الكردي تحويل القتال عند البرج الأحمر، وفي هذه الأثناء المطبوعة باشتداد القتال، توفي الداوي محمد بن عثمان باشا يوم الثلاثاء 12 جويلية 1791م، وخلفه حسن باشا⁽³¹⁾، ودخلت حرب وهران مرحلة جديدة، يطبعها بحث أسباني عن مسالك تفاوضية مع حكومة الجزائر، وإنهاء قضية وهران. فتقدم وكيل اسبانيا بمدينة الجزائر إلى الداوي حسن باشا، طالبا منه الصلح وفق الشرطين التاليين: تعويض نفقات الباي الحربية مقابل إقلاعه عن حصار وحرب وهران. واستدعى بحث شروط الصلح، إقرار هدنة مدتها خمسة عشر يوما، يتشاور فيها أطراف القرار في الجزائر واسبانيا، وقد وقع الاتفاق على الهدنة يوم 20 جويلية 1791م وينتهي أجلها يوم 03 أوت 1791م.⁽³²⁾ ويظهر أن

الشرطين قاسيان على الطرفين معا، فلا اسبانيا تقوى على تعويض نفقات الباي، ولا الباي يقوى على ترك وهران لاسبان.

احتراما لشروط الصلح، أمر الداوي حسن باشا، الباي محمد بن عثمان الكردي بالرحيل عن وهران والدخول إلى معسكر، فكان ذلك يوم 30 جويلية 1791م. وعندما أوشكت مدة الهدنة على الانقضاء، ورد على مدينة الجزائر وفد أسبانيا.

أبلغ الداوي حسن باشا، أن الملك كارلوس الرابع، رفض دفع التعويضات الحربية للباي محمد في ظل بقاء عداوة هذا الأخير وتهديده بالعودة إلى القتال وأنه اختار تسليم وهران دون مينائها، وبناء مخزن أو مخزنين ببرج الميناء.⁽³³⁾ وفي أواخر أوت 1791م كتب الملك الأسباني للداوي حسن، يؤكد له أنه اختار نهائيا تسليم البلاد كلية على الصورة التي تركها المسلمون عام 1732م، أي تقديم ما بناه الأسبان عقب عودتهم إليها.

وبناء على استجابة الداوي حسن باشا لما تقدم به الملك الأسباني، بعث هذا الأخير رسله إلى مدينة الجزائر، لعقد الصلح النهائي، والحاسم مع الداوي حسن في 12 سبتمبر 1791م 4- المرحلة الرابعة 1791م-1792م: ميز هذه المرحلة الأخيرة، من مراحل الصراع الأسباني- العثماني المتجدد حول وهران والمرسى الكبير، عقد معاهدة صلح بين الجزائر وأسبانيا في 12 سبتمبر 1791م⁽³⁴⁾، اشتملت على تسعة فصول، حررت بالنصين، العثماني والأسباني، وتم بموجبها انسحاب الأسبان تدريجيا من وهران والمرسى الكبير مقابل الحصول على امتيازات اقتصادية، ولم تتم المصادقة على المعاهدة إلا في 9 ديسمبر 1791م بسبب اختلاف النص الأسباني عن النص العثماني في الفصول التالية:

-في الفصل الخامس: أهمل النص العثماني، دور تجار الأجناس الأخرى في شراء البضائع، إذا دفعوا سعرا أعلى من السعر الذي يقدمه الأسبان.

-في الفصل السابع: تطرق النص العثماني، إلى دخول وخروج السفن من موانئ إيالة الجزائر، بحرية وقيدها التجاري حسب احتياجات الموانئ، وهذا ما لم تلتزم به المعاهدة الأسبانية إذ حاولت رفع تلك القيود التجارية، أمام السفن الأسبانية.

-في الفصل الثامن: رفض النص الأسباني سرعة الجلاء عن وهران والمرسى الكبير.

-الفصل التاسع: نبه النص العثماني إلى المعاملة الحسنة مع التجار الأسبان في كل موانئ إيالة الجزائر، أما النص الأسباني، يوسع جزءا من الفصل فيعمم حسن المعاملة إلى كل الأسبانيين، التجار وغيرهم الذين يقصدون وهران.

وفي أعقاب الاتفاق على شروط الصلح، كرم الداوي حسن باشا الباوي محمد بن عثمان الكردي ولقبه بالكبير، تعظيما لجلائل أعماله، وألبسه الريشة الذهبية⁽³⁵⁾، وأوكل إليه أمر وهران بعد دخولها، وقدر رموز أسرته وفي مقدمتهم ولده الأكبر عثمان.

وفي يوم الاثنين 27 فبراير 1792، دخل الباوي محمد الكبير مدينة وهران رفقة عائلته وضباطه وعلماؤه وجيشه، في جو احتفالي.⁽³⁶⁾ وفي اليوم ذاته، توجه إلى المرسى الكبير، ثم كتب إلى الداوي حسن باشا، وسلطان الدولة العثمانية، وأمراء الأقطار الصديقة لإيالة الجزائر، يبشرهم بالفتح، وأخيرا دعا الباوي محمد الكبير إلى تعمير وهران من مختلف مدن الإيالة وأيضا من وجدة وفاس ومراكش. وفي هذا السياق يعتبر الباوي محمد الكبير أول حاكم عثماني، يؤسس لوجود الطائفة اليهودية بمدينة وهران، قصد بعث الحيوية والنشاط التجاري والعمراني للمدينة⁽³⁷⁾.

وفي الختام، نؤكد أن التحرير الثاني لوهران والمرسى الكبير عام 1792 م، ترك آثارا إيجابية، أهمها:

- إبعاد الخطر الأسباني من بايليك الغرب الجزائري.
- استعادة الوحدة الترابية لإيالة الجزائر، وتعزيز سيادتها في الداخل والخارج.
- تجسيد التحام أطراف الحكم العثماني بالإيالة، وكذا التحام العثمانيين والعرب والأمازيغ.
- تأكيد الدور الفعال للمثقفين (الفقهاء، الأدباء، الطلبة) في تسيير كبريات قضايا الدولة، وأن سيادة الدولة ومستقبلها هو شأن الجميع.

الهوامش:

- 1- احتل الأسبان المرسى الكبير سنة 1505م وهران سنة 1509م، وواصلوا توسعهم على طول الساحل المتوسطي مركزين على القلاع الإستراتيجية مثل قلعة البينيون penôn المقابلة لمدينة الجزائر وكذا مدينة بجاية 1510م، ومستغانم وطرابلس 1511م.
- 2- الإيالة: اصطلاح إداري عثماني زال استعماله سنة 1908م وحل محله مصطلح ولاية.
- 3- لقب الأكلح لصيق بالباي محمد بن عثمان الكردي منذ طفولته، لشدة سمة بشرته.
- 4- De Grammont، H. Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830. paris، 1887. p342.
- 5- Ibid، p342.
- 6- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973م ص ص 202-203. وأيضا Casenave، Jean."Contribution à l'histoire du vieil Oran ". in revue Africaine، 1925، pp 329-331
- 7-Lespès، René. Oran. Etude de géographie et d'histoire urbaine. Collection du centenaire de d'Algérie (1830-1930)، Paris. Pp 67-69.
- 8- ابن زرقفة، أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن. الرحلة القمرية في السيرة الحمديدية. المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3320، ورقة 2 أ.
- 9-تدينا: أسير فرنسي سخره الباي محمد الكبير لإدارة شؤونه المالية بصة خزنندار بين 1779-1782.
- 10- Emerit، Marcel. "Mémoires de thédenat natif d'Uzés en languedoc écrites à Zurich en 1785. " In revue Africaine، 1948. p 174.
- 11- الرباط لفظة مأخوذة من ربط، بمعنى الإقامة وملازمة المكان، ويطلق في اصطلاح علماء الدين على الأمكنة التي تنشأ في المواقع الحربية، لحماية البلاد وحراستها من هجومات الأعداء، وكذلك تطلق على البقاع التي تؤسس لاجتماع المنقطعين لله والمتعبدين الذاكرين، وكذلك المعتكفين لتعلم الدين وتعليمه. عن البوعبدلي المهدي. " الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى" مجلة الأصالة، العدد 13، 1393هـ/ 1973م، ص 20.
- 12- اشتهرت وهران برباطها قبل الاحتلال الأسباني، مثل رباط قصر الأحمال، أو القصر الأحمر الواقع فوق ربوة عالية، تقع في شمال شرق المدينة، تطل على البحر وتسمح للمرابطين باستطلاع أخبار البر والبحر، ورباط

- صلب الفتح على شاطئ البحر. أما الرباطات المستحدثة بعد الاحتلال الأسباني، فهي كثيرة حول المدينة غربا وجنوبا، أشهرها: رباط إيفري ورباط جبل الماندة، على قمة الجبل المطل على وهران غربا، ورباطات أخرى.
- 13- السرايا جمع سرية وهي طائفة من الجيش تتكون من خمسة إلى ثلاثمائة مقاتل مهمتها الإغارة وملاقاة العدو، وتصطبب معها سلاح خفيفا.
- 14- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 43 ب.
- 15- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 214.
- 16- مجهول. تاريخ الباي محمد الأكلح أو تاريخ استرداد وهران من الأسبان. المكتبة الوطنية الفرنسية، ميكروفيلم رقم 5022. ورقة 9أ.
- 17- المصدر نفسه، ورقة 9أ.
- 18- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 37أ.
- 19- المصدر نفسه، ورقة 53 أ، 54 ب.
- 20- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 247.
- 21- المصدر نفسه، ص 235. وأيضا ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 56 ب، 61 ب.
- 22- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 248.
- 23- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 90أ.
- 24- طالع ابن سحنون. المصدر السابق، ص ص 249-250.
- 25- المصدر نفسه ص 254.
- 26- المصدر نفسه. ص 254.
- 27- المصدر نفسه. ص 270.
- 28- المصدر نفسه. ص ص 274-275.
- 29- المصدر نفسه. ص 278.
- 30- المصدر نفسه، ص 277.
- 31- حسن بن علي باشا: حكم الإيالة الجزائرية بين 1791م-1798م، عرف عنه أنه بالغ في حذره وكان وراء التصفية الجسدية التي مست بايات عهده، وأظهر تعاونا ملحوظا مع اليهود والفرنسيين.
- 32- أبو راس الناصري، محمد بن أحمد بن عبد القادر. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3327، ورقة 67 ب.
- 33- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 307.
- 34- تمت ترجمة محتوى هذه المعاهدة إلى اللغة العربية عن اللغتين التركية والأسبانية. أنظر: بلبروات بن عتو. الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري. رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د بلقاسمي بوعلام، جامعة وهران، 2002 م.

35- الريشة الذهبية: تدعى باللغة العثمانية التركية جلنك وهي حلية ذهبية على صفة كف وأصابع اليد، مرصعة بالأحجار النفيسة، يقدمها الداى لكل باي أو وزير يفتح بلدا من بلدان الكفار، فيجعلها في عمامته تنويها بقدره، وعلامة على أنه من المقربين للداى.

36-Fey، Henri léon. Histoire d'oran avant، pendant et après l'occupation espagnole. Oran، 1858. p264.

37-Bloch، Isaac. Les israélites d'oran de 1792 à 1815.Paris، Ager، 1886. pp 5-6.